لا يُمكِن لمعركة أخلاقية وحضارية

أن تكون.. جزئيّة!

مالك أبو حمدان



قد تسرقُ بعض دول الاستعمار والاستكبار جـزءاً من نفطـك وغـازك ومائـك، ولكن يصعب عليها أن تسرقَ، بشكل مباشر: منظومَتك الفلسـفيّة والعقائديّـة والأخلاقيّـة. بالتّأكيـد، إنّ المعـارك: الفكريّـة، والثّقافيّـة، والأخلاقيّـة.. هي الأكـثر أهميّـةً وعمقـاً وتأثيراً على المدى البعيد. فمنَ الممكن أن ندّعيَ ـ مـع بعض من الجـرأة الإيجابيّـة ـ إنّ المعارك العسكريّة والأمنيّة المباشرة هي من باب "الجهاد الأصغر" بالنّسـبة إلى أوطاننا وأمّتَنا العربيّة والإسلاميّة. أمّا المعارك الفكريّة والثّقافيّة والأخلاقيّة: فلا رَيب في أنّها أقرب إلى باب "الجهاد الأكبر". نعم، القضيّة جدّيّة وخطـيرة إلى هـذا الحـدّ، ويمكننا أن نجزمَ ـ أو نكاد ــ أنّ التّـاريخ الإنسـاني يُغلّب الانتصـارات الحضـاريّة على الانتصارات العسكريّة في نهاية الأمر. فكم من الأمم تَغلب بجيوشها، ولكنّهـا تفشـل حضاريّاً، لتندمج في نهاية الأمر ضمن حضارة المنهَزمين عسكريّاً! (راجع مثلاً: قصّـة الرّومان مع الإغريق إلى حـدٍّ بعيـد، وقصّـة المغـول مـع المسـلمين – أيضـاً إلى حـدٍّ بعيـد.. أو بـالأخصّ: قصّـة القبائـل الجرمانيّـة الغازِيـة مـع الإمبراطوريّـة الرّومانيّـة). لطالما ترقّبتُ وانتظرتُ انطلاقَ ورشةٍ فكريّـة ــ ثقافيّـة – حضـاريّة "مقاومـة" ومن هذا النّوع، وبهذا الطّموح والحجم، كالتي حاول البدءَ بها ـ مثلاً ـ السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر. وأنا شخصيّاً سعيدٌ جدّاً بالتّموّجات الإيجابيّة الـتي أثارهـا خطـاب السّـيد حسن نصرالله مؤخّراً في ما يخص القيم الأسرية والأخلاقيـة. بطبيعـة الحـال، إنـني لَمِن المؤيّدين لهذا الطّرح عموماً، ولا تردّدَ في هذا النّوع من "الجهاد": تماماً كمـا لا يجوز التّردّدُ والتّخلّفُ في جهاد البندقيّة والقذيفة والصّـاروخ. ولكن، هنـاك مـا يُقلـق داخلي: في قلبي وفي وسواسي. وأنا الذي عشت فـترة طويلـة نسـبيّاً في الغـرب، ولا زلت أختلط مع بيئات لبنانيّة واسعة (جدّاً) تعيشُ ضمن الإطار الفكـري-الثّقـافي-الأخلاقي الغربي عمليّاً. وقد شهدتُ فيما شهدتُ، خصوصـاً عـام 2012، في فرنسـا وعن قُرب: المعركة حول السّماح قانوناً بالزّواج المثلي، والهزيمة النّكراء التي مُني بها المعارضون لهذا النّـوع من الـزّواج، حتّى ولّـوا الأدبـار هـاربين (بـرغم الإمكانـات الهائلـة والجمهـور ــ اليميـني خصوصـاً والمسـيحي ــ الواسـع جـدّاً). من الأسـباب الرّئيسيّة لهـذه الهزيمـة، بـرأيي: تخطّي "النّمـوذج الفلسـفي الكُلّي" السّـائد، لهـذه المعركة الثّقافيّة والأخلاقيّـة والسّياسـيّة "الجزئيّـة". بتعبـير آخـر: في مثـال الـزّواج المِثلي في فرنسا تحديـداً كنّـا، وفي الأغلب، أمـام جهـة تتحـرّك في إطـار "نمـوذج كُلّي" واضح المعالم (هي الجهة المؤيّـدة "للـزّواج للجميـع"، والـتي تسبح مـع تيّـار الحداثة – وما بعد الحداثة – اللّيبرالي الطّـابع، لا عكسَـه ولا عكسَ هـوى المنظومـة الرأسماليّة). أمّا الجهة المقابلة (وهي الجهة المعارضة لمشروع "الـزّواج للجميـع") فكانت كمن يريد أن يسبح ضدّ التّيّار العظيم: لكن فقط، من خلال جزئيّة معيّنة. هل هناك "محمّد بـاقر الصّـدر" جديـد يحـاول إكمـال مشـاريع "فلسـفتنا" و"اقتصـادنا" بالإضافة: إلى اجتماعنا.. لكن أيضاً: أخلاقنا وأحزابنا ومواطَنتنا ومؤسّساتنا ودولتنـا..

وتكافؤ فرصنا وكرامة فردنـا.. وسـلامة أحيائنـا من المُـرابين والمُقـامِرين ومـا إلى ذلك؟ في الواقع، كان هؤلاء، من معارضي الزّواج المثلي في فرنسـا، يمشـون ضـدّ أنفسهم عمليّاً وفي الأعم الأغلب: فلا هم يُعارضون "النّموذج الكلّي" الـذي تطرحـه الحداثة – وما بعد الحداثة – اللّيبراليّـة الفرديّـة (الطّاغيـة)، ولا هم خارجَـه في أغلب المسائل الأخرى دون الزّواج المثلي (اعلاماً واقتصاداً واجتماعاً وعائلـةً وديناً وقيَمـاً وفلسفةً وسياسةً داخليّة وخارجيّة إلخ.). لذلك، فقد جـرفهم التّيّـار الحضـاري الكُلّي المهيمِن: جرفَ النّهر العظيم لشجرةٍ وحيدةٍ يابسةٍ وسطَ الماء. تخالُ نفسَها صخرةً وما هي من الصّخر بشيء. خُلاصةُ ما أودّ التّشديد عليه في هـذا السّـياق هي: إنّـني أخاف أن يحصُل مع شعوبنا اللّبنانيّة والعربيّة والإسلاميّة، تمامَ الذي حصل مع هـؤلاء الفرنسـيّين (وقـد كنت منهم بطبيعـة الحـال). فقبـل أن نـدخلَ في معركـة كهـذه، مرتاحي البال ومطمئنّي القلب: (1) هل نحن متأكّدون بأنّها ليست معركةً ضدّ فسادٍ جُزئي (دون غيره من أنواع الفساد وفي كلّ المجالات)؟ (2) هل نحنُ متأكّـدون من "نموذجنا الحضاري الكلّي" البديل؟ وأينَ هو؟ وكيفَ يتمّ تسويقه من خلال الأساليب والتّقنيّات الحديثة؟ وهل يتمّ تقديمه بشكل جذّابٍ ومغرٍ ومنافِس؟

(3) على المستوى الإسلامي تحديداً: هل هناك "محمّـد بـاقر الصّـدر" جديـد يحـاول إكمال مشاريع "فلسفتنا" و"اقتصادنا" (بالإضافة: إلى اجتماعنا.. لكن أيضاً: أخلاقنا وأحزابنا ومواطَنتنـا ومؤسّسـاتنا ودولتنـا.. وتكـافؤ فرصـنا وكرامـة فردنـا.. وسـلامة أحيائنا من المُرابين والمُقامِرين وما إلى ذلك)؟ النّـداء الصّـادق هـل نريـد الانتصـار على العـدوّ والمسـتعمِر فقـط من النّاحيـة الأمنيّـة والعسـكريّة وبعض من النّـواحي السّياسيّة، أم أنّ مشروعَنا هو الانتصار من النّواحي السّابقة، لكن مع تقديم نمــوذجٍ حضاريٍّ بديلٍ جدّي؟ هل القضيّة هي مجـرّد قضـيّة أمن وعسـكر وبعض من النّضـالٍ السّياسي، أم أنّ علينا الانتصار، كما ذكرنا: فكريّاً، وثقافيّـاً، وأخلاقيّـاً قبـل أيّ شـيء آخر (وفي نهاية المطاف)؟ أعتقد، يقيناً، بأنّنا ـ أقلّه في خـطّ الإمـام موسـى الصّـدر والسيّد محمد باقر الصّدر والإمام روح الله الخميني ــ من المدرسـة الثّانيـة. لـذلك، فمن المهمّ أن نقـاومَ من خلال نمـوذج حضـاريّ بـديل وجـدّي، لأنّ نمـوذج الفرديّـة اللّيبراليّة الحالي (الحداثي وما بعد الحداثي) لا يتّفق مع نموذجنا المثـالي للحضـارة. ولكنّ ذلك لا يعني الهجوم من محـاور جزئيّـة فقـط. مثـل: أن نقـومَ على الانحـراف الفلاني دون الانحــراف الفلاني، أو الفســاد الأخلاقي الفلاني دون الفســاد الأخلاقي الفلاني، أو أن ننـاقش المفهـوم الحـداثي الجـزئي الفلاني دون المنظومـة الحداثيّـة الفرديّــة-اللّيبراليّــة ككــلّ. علينــا، بــرأيي الصّــادق والمُخلص، أن نكــون كصــاحب "فلسفتنا" و"اقتصادنا": أي من المستقرين (من "اسـتقراء") لمفاهيمنـا ونظريّاتنـا العامّة والبديلة. وهذا يعني، كما رأينا: الشّؤون الجنسيّة والأسـريّة طبعـاً، لكن أيضـاً، شــؤون دولــة المســتقبل، ومؤسّســات المســتقبل، واقتصــاد المســتقبل، وماليّــة المستقبل، وأسواق المستقبل، ومجتمع المستقبل.. والمنظومـة الفكريّـة والثّقافيّـة

العامّـة للمسـتقبل. وإلّا، فصـدّقوني (واللـه أعلم): المعركـة خاسـرة من الآن. لأنّ شبابَنا لا يرَون، حتّى اليوم، بديلاً جـدّيّاً ــ مقنعـاً وشـاملاً ومُغريـاً ــ للنمـوذج الفـردي اللّيبرالي الحداثي الغربي (لا مضموناً ولا إعلاماً ولا تسويقاً)!